جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة

prix littéraires
premios literarios
naji naaman *'s*
literary prizes
2004

رُنِـه فِـرِّر

من قلب الغابة

المُلتَهِب

نقلَته إلى العربيَّة عن التَّرجمة الفرنسيَّة

مرسال الأشقر

راجعَه

ناجي نعمان

دار نعمان للثقافة

رُنِـه فِـرِّر

شاعِرَةٌ وقاصَّةٌ وكاتبةُ مَسرَح، من مواليد عام ١٩٤٤ (أسُنْسيُون – البارَغْوِي). حائزةٌ الدُّكتوراه في التَّاريخ، الأمينةُ العامَّةُ لأكاديميَّة اللُّغة الإسبانيَّة في البارَغْوِي. أصدرت عشرات الكتب، ونالَت العديدَ من الجوائز، من بينها جائزة ناجي نعمان الأدبيَّة لعام ٢٠٠٤ (جائزة التَّكريم).

تنقلُ لنا رُنِه فِرِّر "من قلب غابتها المُلتَهِب" في أمريكا الجنوبيَّة – عبرَ عَمَلٍ بيئيٍّ رَمزيٍّ بامتياز – مأساةَ كوكبنا، وما يُعانيه من جَرى أعمال إنسانه الطَّائشَة؛ وهي تَصحَبُنا، بجَماليَّة، في جولةٍ أنسَنَة أبطالُها حيوانٌ ونباتٌ وطِفلٌ وفتاة، ولصوصُها "الرِّجال"، أولئك الذين أعمالهُم الكَسبُ الآنـيُّ عن كَسب المُستقبل.

ناجي نعمان

Renée Ferrer

Poetess, novelist and dramatist, born in 1944 (Asunción – Paraguay). Ph.D. in history, secretary-general of the Academy of Spanish Language in Paraguay. Author of several books, bearer of many prizes including Naji Naaman's Literary Prize for 2004 (Honour Prize).

Poétesse, romancière et dramaturge, née en 1944 (Asunción – Paraguay). Avec un doctorat en histoire, elle est secrétaire générale de l'Académie de la Langue Espagnole au Paraguay. Auteure de plusieurs livres, elle détient un bon nombre de prix dont le Prix Littéraire Naji Naaman 2004 (Prix d'Honneur).

مَلحوظَة: بما أنَّ معظمَ أبطال القصَص الآتِيَة يتمثَّلُ بحيوان الغابة، ونَباتِها، فقد شَخَّصنا تلك الحيوانات والنَّباتات بعامَّةٍ، لجهة اللُّغة، واعتبَرناها كما البَشَر. وقدِ اقتضى التَّنويه.

السُّمَّنَة والمخبأُ الشَّجريّ
كيف أنقذَ طِفلٌ أرزةً
إعترافاتُ حُبوب
يومَ سقطَتِ النُّجوم
قطرةُ عَسَل
تمرُّدُ الغابة
ولادةُ اليَنْبوع
زُنَّارُ الحُباحِب

ألسُّمَّنَة والمخبأُ الشَّجريّ

كانت مأخوذةً بكثافة أوراق الشَّجر، هناك، تحتَها، والحفيفُ كأنَّه صادرٌ عن كلِّ ورقةٍ على حدة. شيءٌ ما في داخل جسمها الرَّقيق أنبأَها بالوصول: ربَّما رنينُ دقَّات قلبها أو طرقاتُ أجدادها المجنَّحَة. ليس لديها عِلمٌ عن المسافة. جرى كلُّ شيءٍ في دماغها الخالي من الذَّاكرة، وكأنَّه يحدثُ الآن: سماكةُ الخشب، انتشارُ الشَّمس خلال فصل الرَّبيع؛ وهي، في السَّماء، ثملةٌ بين أعاصير الهواء.

محلِّقةً فوق مجموعةٍ من الأوراق الخضراء التي ملأت نظرَها، أدركت أنَّها بلغَت هدفَ رحلتها. هي في دارتها. أحبَّتِ الغابات، ربَّما بسبب النَّمْل المُنهَمِك في أخاديد الجذوع، أو بسبب تلك العباءة من زغاريد العصافير المُجتَمِعَة التي تحجبُ هبــوطَ اللَّيل. لهذا السَّبب

أحبَّت الغابات. إذا كانت السّنونو فضَّلت قِمَمَ الأكواخ، واللَّقلَقُ وحشةَ المدافئ، فإنَّها، على العكس من ذلك، اختارت تجمُّعَ الأشجارِ المُعْتِمَ لبناء عشِّها.

ولَجَت، من خلال فَجْوة ظلّ، داخلَ أوراقِ الأشجارِ قافزةً فوقَ بُرك النُّور المتسرِّب حتَّى الأرض، مُصغِيَةً إلى ريح الغابة، إلى تدفُّق الحياة المتصاعد نحو الغيوم، متأثِّرةً بأقلِّ حركة.

إنَّ العارِشةَ المُتمايلة، الدِّيدانَ والحشرات – مصدرُ لذَّتها – أثارت انتباهَها من كلِّ جهة. راحتْ تنقرُ غصنًا، هي الفطنةُ والدَّاهيةُ، وتتنفَّضُ على سجَّادةٍ مُبَلَّلَةٍ بأوراق عابقَة برائحة رطبة عند أسفل كلِّ شجرة، ثمَّ، وكبُرْعُمٍ مُبَقَّعٍ بقوائمَ صلبة، استسلمت إلى النَّوم بسلام.

لقد انتبهَت إليه بسرعة. في اللَّحظة التي سبقَت، صوتُ كَمانه أخرجَها من غفلتها. رضيَت أن يتأمَّلَها، هي الغريبةُ عنه، في حين خفقَ قلبُها وكادَ يُهَشِّمُ كلَّ شيء. إستسلمت إلى مرور لَحنه عبرَها، ثمَّ هربت، موحِيَةً بعدم

الاستماع إليه. ورأته من بعيد، في ترقُّبها الدَّائم، يهجمُ ثانيةً مُستعينًا بزَغردتها الصَّافية، فيما هي، مُنطوِيَةً على ذاتها، تظاهرت باللاَّمُبالاة.

هذه البرودةُ المَزعومةُ ما حيَّرَته قطّ. بل، على العكس من ذلك، تجرَّأ واقتربَ منها قفزًا. تجنَّبَته من جديد، بخفَّة. وإذ اعتبرَ أنَّ نفسَه أُهينَت بعضَ الشَّيء، واصلَ الغناءَ بعزم، وتبعَها من جديد راسمًا التفافاتٍ بطيئة.

وبعدُ أيضًا، القليلُ بعدُ من هذا الغناء، القليلُ من صوته المُداعِب على نَحوٍ غير مَحسوس. فَلْيُنادِني بعد؛ ولْيَلحقْ بي من جديد، لِيَقتَرِبْ. إنَّه يعجبُني. متأرجحةً بين الهروب المُتَرَدِّد والرَّغبة في البقاء، توارَت مرَّةً أخرى.

فجأةً، أفلتَت نوطةٌ من رفيقاتِها، وانغرسَت في الهواء مُرتَجَّةً مثل سهمٍ رَنَّان. أنهى هذا الأخيرُ دورتَه في الفناء. إستقرَّ على غصن، صامتًا، صغيرًا وفخورًا، فيما اقتربـــت هي منه رويـــدًا رويدًا، كلُّ المقاومة مهزومةٌ،

المنقارُ نَهِمٌ مثلَ طفلٍ مُعْوِزٍ يطلبُ المأكل.

فتَّشَ، حتَّى يشوِّقَها إليه، عن هَفْوة. واختصرَ، مرَّةً أخرى، وفي إطالة للانتظار، المسافةَ بين نفسه وبينها. ثمَّ، بنعومةٍ كبيرة، ومتجنِّبًا جرحَها، أدخلَ الحشرةَ في المنقار الممدود كما مُتَلَمِّسٍ لحُبّ.

وحدَّدتِ السُّمَّنَةُ بغنائها، وقبل أن يكشفَ القمرُ نقاوةَ لونه الفضيّ، مساحةَ قطعةٍ من الغابة. وفتَّشَت سيِّدةُ الأراضي من دون منازع، في الغد، عن المكان الملائم لبناء عشِّها: الريِّشُ، الأغصانُ الدَّقيقةُ اليابسةُ، قبضةٌ من الطُّحْلُب، بضعةُ قطراتٍ من النَّبعِ والقليلُ من التُّراب، كافيةٌ هي حتَّى يتمكَّنَ العصفوران، مع كلفةٍ لا تُحصى من الذّهاب والإيَّاب، من إنجاز عملهما.

لقد أمضيا أيَّامًا يتناجَيان ويتخاصمان بحنان. ثمَّ كانتِ المفاجأةُ مشتركةً بينهما لدى اكتشافهما بيضًا صغيرًا؛ فقامت هي بحماية العشِّ من البرودة، وتكفَّلَ هو بالغناء، متضامنَين بالنِّسبة إلى الجوار.

ما إنِ اشتدَّت سرعةُ الرِّياح الجنوبيَّة الباردة، حتَّى ذهبتِ الأمُّ برفقة صغارِها بحثًا عن حَصادٍ من الفاكهة، عاهِدَةً إليه حراسةَ العشّ.

كانتِ الأيَّامُ، من دون رَوحاته وغدواته، طويلةً كالنُّجوم البعيدة جدًّا. الآن، ومع رحيل رفيقة دربه، بَدَت له السَّاعاتُ لا جدوى منها.

إنتظرَها بفارغ الصَّبر حتَّى أسندَ الشِّتاءُ المُتقاعِدُ مكانَه للحبوب المُنبَعِثَة ولصعودِ ماء النَّبات الواعِد بالخير الجَمّ.

ما عادَ في استطاعتها التَّأخُّر. قريبًا، ستأتي الغابةُ، بأريجِها الأخضر، لملاقاتِها.

مرَّةً بعد مرَّة، تخيَّلَت رؤيتَه موصِدًا الأفق. لكن، مع تتابعِ اقترابها، أزالت بقعٌ سوداءُ ضخمةٌ أملَها.

"لدى ابتلاعِ النَّهار القمرَ، وعلى الأرجح قبلَ التهامِ اللَّيل الشَّمسَ"، ردَّدَت هذه العبارة بعَزم، في الوقت الذي حثَّت فيـــه طيورَها الصِّغار، المُشاهدين الاخضرارَ

في كلِّ ناحية، على الطَّير بسرعةٍ أكبر.

إنهارَت من التَّعب عندما تملَّكَتها رائحةُ الرَّاتِنْج المُشَيَّط: نزيفٌ من اللَّهب المُمتَدّ على اتِّساع الأرض اللاَّمتناهي! جذوعُ الأشجار المتوسِّلةُ مثلَ الأيدي المفتوحة. كلُّ شيءٍ هنا: أشجارُها الصَّريعة، رفيقُها المُتَحَوِّلُ صمتًا، عشُّها المُهَدَّم.

إجتاحَ الدُخانُ حلقَها، أملَها وعياءَها. مع تأجُّجِ لَهَثها، تأخَّرت مرَّةً أخرى على الأرض، ثمَّ ضاعت في شحوب الأفق الرَّماديّ، مع دمعتَين سوداوَين مكانَ العَينَين.

كيف أنقذَ طِفلٌ أرزةً*

إنهماكُ الرِّجالِ في فُرجة الغابة المجاورة، منعَه من التماس النَّوم. إستيقظَ پابلو عند الفجر، وتوجَّهَ – سَكوتًا، الحلقُ متشنِّجٌ بشعور سَبْقيٍّ كئيب – نحو هذا المَنْفَذ من الغابة.

الأرزةُ، هنا، جامعةٌ بجذعِها المُرْمَدِّ الأرضَ بالسَّماء. عندما رآه للمرَّة الأولى، ما أخطأَه قطّ: تحت ظاهرٍ رماديِّ اللَّون نامَت ظلالُ الشَّفَق الحمراء. ما عادَ پابلو يتذكَّرُ جيِّدًا أين أصبحَتِ الشَّجرةُ رفيقةَ خياله الثَّابتة.

---

* الأرزةُ شجرةٌ قد يصلُ ارتفاعُها إلى أربعين مترًا، خشبُها رديُّ اللَّون، خافِت، وقشرتُها عَطِرَة. إنَّها شجرةٌ أسطوريَّةٌ وموهوبةٌ للكلام بحَسَب الغْواراني، وهم هنودُ البرازيل والـــپارَغْوِي.

هل في ذلك المساء، عندما احتمى تحت أوراقها، فأحسَّ برذاذٍ ناعمٍ مُشْبَعٍ بعِطر الفَيْء وعُصارةٍ برِّيَّة؟ أم في تلك اللَّيلة، عندما فاجأَها مفكِّرَةً بصوتٍ عالٍ وكأنَّ الكلامَ قد سالَ من شقوقِ قشرتِها العَطِرة؟

منذ ذلك الحين، أقبلَ على سماعها، كما مجيء العصافير والغيوم والنَّحل المُنعَطِف حولَها في غُنج، مُخبِّئًا عَسَلَه اللَّذيذَ داخلَ فجوات جذعها. أُبهِرَ بإبلو بصوتِها الخَفيضِ الآتي من ارتدادات الكواكب.

لقد وصلَ مُتَخَفِّيًا ورحلَ مُرَوَّعًا. إنَّها الحقيقة. لقد اتَّضحَت شكوكُه أمامَ عينَيه: الرِّجالُ هنا، المُخيَّمُ إلى اليمين، الدُّروبُ إلى الشِّمال، وارْتعاشُ الأزهار في الوسط.

وجبَ عليه فِعلُ أيِّ شيءٍ لإنقاذها، شيءٍ ما على حجم قامته الصَّغيرة. فكَّرَ بيأسٍ فيما يُراقِبُ تَحضيراتِ القَطْع.

في مساء اليوم التَّالي، ما كـــادَ الحطَّابون يذهبون

للاسترخاء تحت خِيَمهم، حتَّى غاصَ پابلو في قلب الغابة بحثًا عن الأرزة بين مَثيلاتها المُظَلَّلَة بليلٍ من دون قمر، مفرِّقًا العارِشات الخانقةَ الأدغالَ. تقدَّمَ نحو المَوْطئ مُتَنَبِّهًا إلى شكوى الأرض. أخيرًا، وبتوجيهٍ من رَوْحاتِ الفراشات وغَدواتها، تلك التي تَقتاتُ من نَبْتاتِها، تعرَّفَ إلى الشَّجرة. أحاطَها بذراعَيه، داعبَ خشونةَ قشرتِها، تَحرَّى عن وضعها. لاحَت له يداها الصَّغيرتان الدَّاكِنتان قائلةً: لا تخشى شيئًا.

بدأ بالصُّعود دونما انتظار. شكَّلَ الجذعُ المُنتَهي بأغصانٍ مقطوعةٍ مُلتَكَّةٍ جسرًا بين الأرض ورأسها. مُنقادًا بواسطة سحابةٍ من الأريج، تخيَّلَ سلوكَه دربًا بين عناقيد الزُّهور، من دون رؤية نهايةٍ للطُّرُق المُختَصَرَة المُتَّبَعَة، ولمراحل هذه الرِّحلة.

ثمَّنَ من جديد إلْحاحِيَّةَ مَهَمَّتِه بعد اصطدامه بثمرةٍ بَكور: عليه الإفصاحُ عن مُراده. قريبًا جدًّا، سيُهَشِّمُ النَّهارُ صَدَفةَ اللَّيل ويفوتُ الآوان. إستَدَلَّ، كفريق صبيةٍ ضَجَّاج،

عن المَسير الأقصر. مُتَذِّكرًا الطَّريقَ الذي سلكَته حبَّةٌ مُجَنَّحَةٌ في طيرانها المُتَمَوِّجِ، دَلَفَ الغابةَ تَلَمُّسًا. تَحَرَّى، عن قرب، عن آخر مفرقٍ للأغصان حيث في استِطاعته الهربُ من الفراغ المؤدِّي به إلى السُّقوط. تسلَّقَ، وارتفعَ أكثرَ حتَّى لامسَ السَّماء، تَنَزَّهَ عَبْرَ كَوْكَبَة الأنوار، وقبل أن تنطفئَ النُّجومُ، اختارَ أكبرَ نجمةٍ منها وأكثرَها إشراقًا.

أخذَها بلطفٍ بين يدَيه، وضعَها في جيبه، نزلَ من الشَّجرة، بتَوانٍ، وطبعًا من دون سيطرة الدُّوار عليه. نظرَ إليها عندما لامسَ التُّراب: كان نورُها باهرًا.

مدَّ ذراعَيه على قدر ما سمحَت له قامتُه، باحثًا عن نتوء غصنٍ لتعليقها بمثابة فَأل.

في اليوم التَّالي، عندما أتى الرِّجالُ لإتمام مَهَمَّتهم، رأوا النَّجمةَ المُعَلَّقَةَ على الأرزة النَّاسِكَة، مثلَ قُبْلةِ نورٍ على الخشب العِطْريّ؛ ذُعِروا من هذه العلامة الغامضة، فتركوها بسلام.

إعترافاتُ حبوب

إلتقينَ، بعد زمنٍ طويل، عندما لم يَعُدْ جسدُ أجدادهنَّ سوى ذكرى خشبيَّةٍ في دَوْرة الفصول.

إنَّ معرفتَهنَّ بالخبر عن طريق الموعد المُقَرَّر من أمَّهاتهنَّ أسلوبٌ فُجائيٌّ بَحت، لا يُصدَّقُ حقًّا. لم يَنْبُسْ أيُّ إنسانٍ في الغابة، ولا حتَّى في المدينة أو على طول الجَدْوَل، ببِنْت شَفَة، حيث أنَّهنَّ ما شعرنَ أبدًا بوجود بومة، سعَت، في ترحُّلها بين زوايا الغابة الأربع بغيةَ الرَّصد، إلى إشاعة الخَبَرِ تحت نظر القمر المُسالِم.

بعد سنوات الغياب العديدة، قرَّرَت ثماني حبوبٍ من *السَّنو* – مغلَّفةٍ بريشٍ صغيرٍ داخل قَرْنٍ مُمَدَّد، طافحةٍ بالحشريَّة وبالكاد لديها بعض التَّلَهُّفِ للسَّفَر – التَّلاقي لِتَذَكُّر أيَّام الانزِواء، وصُروف التَّفْريق، واستِذكارها.

حياةُ الحبوب في حِمَى الفَلْقات المُنتَظِرَة الإنْباتَ، جعلَتْهنَّ تستسلمنَ، من دون خوف، للرِّيح التي خَطفَتهنَّ، فما فكَّرنَ إلاَّ بالرَّحلة. نشرَ صوتُ حَشْدٍ من الجُدْجُد صَمْتَ مَنْقَبَة النَّخْل النَّائمة عندما بدأتِ الحبوبُ بكشفِ النِّقاب عن مراحل حياتهنَّ المختلفة.

مُجْتَثَّةً من ترابِ مَشْتَلٍ بلديٍّ مَركومٍ في جادَّة، رأى بعضُ الحبَّاتِ بروزَ ظلٍّ مُرَقَّطٍ بالزَّهر من جَنينها النَّباتيّ. وتذكَّرت إحدى الحبوب الأصواتَ السَّاطعةَ لأطفالٍ لاهينَ بلُعْبة التَّخْبِئَة خلفَ جذعها المُستَدير.

وكانت لواحدةٍ منهنَّ مغامراتٌ أكثرَ تطوُّرًا: مُنقادَةً مع الرِّيح حتَّى المخيَّم، كبُرَتْ بالقرب من السَّاقية وشهدَت تحوُّلَ جذعِها إلى خفَّافٍ ينزلقُ الرِّجالُ بداخله في رحلتهم إلى صيد السَّمك.

وهبَتِ الحبَّةُ الأكثرُ انتفاخًا، خلالَ فترة جفافٍ لامُتَناهية، الماءَ الذي امتلأت به إلى كلِّ القرية، لإشباع عَطَشها. وعندمـــا ارتَعَبَـــت من الشَّقّ في خشب الشَّكير،

تناقصَ ألمُ النَّاس. كم هي صالحة! كم هي صالحة! سمعَت هذه العبارة؛ إنَّها كلماتُ الشُّكر لها.

واحدةٌ منهنَّ، وقد غدَت شجرةً، تذكَّرتِ النَّقَّارَ الأخضرَ مُدَغدِغًا إيَّاها بمنقاره الأخضر. وأخرى تباهَت، إباءً، بتعرُّضها لهجومٍ من قبل زَوْبعةٍ من عصافير الطَّنَّان.

شحَبتِ النُّجومُ لدى معرفتها أنَّ الحبَّةَ الأخيرةَ ابتعدَت عن المجموعة مُطلِقةً العنانَ لدموعها.

تشوَّشَتِ الأخرياتُ! فانهالَتِ الأسئلة عليها، بمؤازرةِ الحشريَّة، كالصَّواريخ، ومن كلِّ حَدَبٍ وصَوْب: ما الذي جرى؟ ماذا حصلَ لها؟ ما بكِ؟ لكن، هي، في وسطِ اختلاجاتِها، ما استطاعَت الردَّ عليهنّ.

وبعدَ تشجيعٍ مُتَكَرِّر، ومع كثيرٍ من الصَّبر، وافقَت على الكلام:

أنا أتحدَّرُ من شجرةٍ ضخمةٍ لدرجة أنَّها المُفَضَّلةُ لدى العصافير الرَّاغبةِ في الوصول إلى الغيوم! الأعشاشُ

التي استقبلتُها بدت وكأنَّها مصنوعةٌ من ذُرارة القمر، ووجدَ الحفيفُ الملجأَ بين أغصاني. إنَّ حُفَرَ الحشرات، وطنينَ القَفير الذَّهبيّ، طُبِعا في ذاكرة جذعي؛ كنتُ شاهِدَةً على رُعبِ الغزال ورعشةِ القُواع عند توقُّعهما خطى الصيَّاد الخَفِيَّة. كانتِ العارِشاتُ تتوسَّلُ إليَّ حتَّى أسمحَ لضفائرهنَّ المُتَراخِيَة بالالتفاف حول أغصاني. كنتُ سعيدة! أنا ركنٌ من الغابة هدفُه الوحيدُ الارتفاعُ في سبيل المُناداة بالحياة.

إنكسرَ، ذات يوم، خفقانُ الغابة العَذب. دويٌّ سَلَبَ الغابةَ سكونَها الكئيب. سمعتُهم قادمين: إنَّه وقتُ القَطْع والنَّار والتَّشَتُّت.

ضربَتني أصواتهم بشدَّة. حطَّمَ لَمعانُ الفولاذ رونقَ القشور. قَرْقَعةُ الخشب تحت السَّلاسل سَلَبَتْ من الغابة تَغْريدَ العصافير. شاهِدَةً على عمليَّة القضاء على مَثيلاتي، انتظرتُ، مُسْتأمِنَةً، على الرَّغم من حزني. تخيَّلتُ كيف سيكــونُ مصيري. عذَّبَ هذا التَّفكيرُ نفسي،

وبقيتُ على هذا الوضع إلى حين؛ ثمَّ أَطاعَ الرِّجالُ الأوامرَ، فأضرَموا النَّارَ فينا من دون الاستماع إلى صلواتي.

يومَ سقطَتِ النُّجوم

كان شغفَ أَفْيَـــيـــه الغوصُ في الغابات، الضَّياعُ في متاهة العارِشات والعُلَّيْق، بغيةَ تقفِّي أثرَ أقدام الغزلان للوصول إلى مكان نومهم، بسرِّيَّة.

لم يُعجِبْه شيءٌ أكثر من ذلك؛ فلا سَبْرُ أغوارِ الأفق توقُّعًا لهجومٍ ما بغيةَ إعطاء إنذارٍ لجسده فيمتلئَ شجاعةً يُعجبُه، ولا تلطيخُ وجههِ بالألوان في المناسبات الشَّعائريَّة، ولا مشاهدةُ الرِّجالِ السَّكارى من الشِّيشة *(كحول من الذُّرَة)* والرَّقص، منسلخينَ عن العالم، ومأخوذينَ بإعصارِ الحرِّيَّة اللاَّشُعوريّ. ما يُعجبُه الانزواءُ داخلَ أفكاره الخاصَّة وتحتَ مظلَّة الأشجار، برفقة رائحة الأرض المُبَلَّلَةِ والمغطَّاةِ بكَوْمَـــةٍ من الأوراق والأغصان

الطَّريَّة، ثمَّ اجتِيازُ معابدَ النُّسْغ والظِّلال التي سمحَت بها الآلِهَة، حالِمًا.

أشياءُ أخرى أثارَت اهتمامَه أكثر: السَّماءُ بنجومها المُستدَيرة؛ غزوةُ نَمرٍ نَهِمٍ القمرَ؛ المسيرةُ المألوفةُ لكَوْكَبة النُّجوم. وكما تفتيتُ الحَبّ، أمضى أَفْيْـبِـــه أيَّامَه الرُّوتينيَّةَ في القبيلة بصداقة حميمة مع الغابة وعظمة السَّماء. لاحقَ النَّحلَ حتَّى القُفْران الخَفيَّة عن الأنظار، وفي طريقه، طاردَ نومَ العَظايات المُحتَرِقَة من الشَّمس. قسَّمَ وقتَه بين مرافقته المُقاتلين المُدَرَّبين في اصطياد الأسماك الهائجة، وأيضًا، مراقبته، في الخفاء، ومن خلال القُبَّة الزَّرقاء، تَعرِّيَ اللَّيلِ الخالِعِ عنه نجومَه المَصقولةَ كالألماس واحدةً تلوَ الأخرى؛ مُبدِيًا، بعدَها، استعدادَه لاستقبال الفجر.

ما أحبَّ الكلامَ، ونادرًا ما شعرَ بالحاجة إليه. قادَته خطواتُه الطَّريَّةُ والواضحةُ إلى المكان الذي حدَّدَه. إختفى عن المخيَّم لأسابيعَ كاملة، أو بقيَ مع النِّساء لطَحنِ

الذُّرَة، من دون إطاعة أيِّ قانونٍ سوى رغبتِه الخاصَّة. وعلى أيِّ حال، فقد احتفظَ في قلبه ببَهجة العيش وبسِرِّ محادثاتِه مع النُّجوم.

لم يعرفْ أبدًا في أيِّ فصل حدثَ الأمر. مُفترِشًا العشبَ، الوجهُ مُنحَرِفٌ باتِّجاه الكون، بدأ مشاهدةَ تساقطِ النُّجوم. وبسبب الافْتِتان أو التَّعجُّب ربَّما، تصلَّبَت يداه تحت وَقعِ الأمطار المُذهِلة التي تساقطَت على الأرض. ما استطاعَ النُّهوضَ ولا الاختِباء، وحتَّى في الاحتِماء باستِذكار مملكة طفولته، لم يَجِدْ ذراعَي الأمِّ، إذ غابَت عن الوجود.

ها هو مُستَسلمٌ إلى رؤية هذه الكارثة الأرضيَّة المُذهِلَة: نجومٌ مُشْتَتَة، مُذَنَّباتٌ من دون مَسارٍ مُحَدَّد، أقمارٌ ذَروريَّةٌ مُرتَمِيَةٌ في الفراغ، كلُّ هذا جعلَه من دونِ صوت، متأثِّرًا ومَذهولاً. أمام الكواكب التي تساقطَت صافِرَةً، باشرَ تأمُّلَ الرُّكامِ الجُرُفيِّ المُكَسِّرِ الأشجارَ، وهندسةِ التَّشْجيرِ المُتفاوتة الأقسام، وتوازنِ الأعشاشِ غير

الثَّابتة. أذهلَه جمالُ النُّور. توقَّفَ عن الارتِعاش: كلُّ شيءٍ تقوَّضَ من حولِه. ومثلُ شاهدٍ عاجزٍ ومُرغَمٍ، رافقَ، تدريجًا، انهيارَ عالمه.

عند توقُّفِ المطرِ الغامرِ، هدأ خوفُ أَفْيْـبِـــه، واستردَّ ذهنَه المُتَحَجِّر، وحاولَ النُّهوض. إستحالَ عليه الحراكُ، فظهرُه وأطرافُه، وحتَّى قَدَرُه، جميعُها مُسَمَّرةٌ في التُّراب. إستطاعَ، فقط، إدارةَ رأسه من جهةٍ إلى أخرى، وبطريقةٍ جعلَته قادرًا على رؤية جُمَّة النَّار التي نبتَت في الأرض.

تمكَّن من الصُّراخ، وكذلك من الصَّلاة، لكنَّ التَّأَوُّهَ كان مُستحيلاً عليه. ومع ذلك انهمرَت نقطةُ ماءٍ كئيبةٌ من زاوية جفنَيه. إستمعَ إلى الوَحدة، واستكشفَ شيئًا فشيئًا رِقَّةَ الشَّوادن *(مختلف العوامل الجَوِّيَّة غير المألوفَة)*. تعرَّفَ إلى هياكلِ الأشياء الموجودة داخلَ النَّار المدمِّرة التي أسْكرَتها الرِّياح. ما من أحدٍ أتى لإنقاذه، لأنَّ الجميعَ لم يفهموا وَحدَتَـــه. مُستسلِمًا لذاته، تذوَّقَ ببطءٍ مَذاقَ حزنه.

وكما تقديمُ قربانٍ إلى شمسٍ مُحرقَةٍ وإلى قمرٍ مُطْفَإٍ، بقيَ في الوَضعيَّة ذاتِها على مدى الفصول المتعدِّدة، مُصغيًا إلى احتضار الحياة من حوله.

بدأ الحبُّ يتسرَّبُ من النَّبع المتولِّد، وتفجَّرَ داخلَ أَقْيَـــبِـــه المتعطِّشِ لتلكَ التَّحلية. أرادَ التَّضحيةَ بنفسه، وهو مُدركٌ كونَه جزءًا من هذا العالم، وقوَّتَه الحيَّة. شعرَ بصعوبة جريان دمِه داخلَ الشَّرايين. إنطفأت عَيناه، وأَزهرَت يداه. نبتَت شجرةٌ أصليَّةٌ جديدةٌ من وسط جسده، وتغذَّت من لحم يأسه الشَّديد.

ورَوى العلماء، وتجرَّأَ القليلُ من النَّاس على مخالفتهم الرَّأي، أنَّه، حتَّى يومنا هذا، وفي قلب الغابة المُنعزِل، في استطاعتنا رؤيةُ شكلِ طريحٍ *(شاهدُ قُبورٍ يُمثِّلُ إنسانًا مُضْجَعًا)* من الصَّخر في عناقٍ مع جذورٍ لا تُحصى.

قطرةُ عَسَل

إرتفعَت أمامَها، شيئًا فشيئًا، التِّلالُ المُخْمَلَّةُ الدَّاكنةُ اللَّون. وصوبَ الأعالي، تعانقَ الاخضِرارُ النَّاعِمُ، ثمَّ الدَّاكِنُ والباهتُ من جديد، مؤلِّفًا بذلك تَشبيكًا نَباتيًّا ناعِمًا، بينما هي، في سَعيها لبلوغ القمَّة، الحِملُ على الظَّهر، ما تخلَّت عن المشاهدة.

تحاشَت، على طول الدَّرب التي تفصلُها عن المكان حيث اعتادَت التَّموُّن، الحواجزَ، وأبعدَت ذاتَها عن أيِّ وَهنٍ في العزيمة. فلا المسافةُ، ولا حرُّ الشَّمس، ولا القطراتُ الصَّافيةُ المُتَساقِطَةُ من الأوراق، مثَّلَت قوًى رادِعَةً لعَمَلها. مُنهَكَةٌ هي، لكنَّها شدَّدَت على العودة إلى المخيَّم قبلَ اكتساحِ الجوع له.

كم مضى من الوقت وهي منشغلةٌ في المُنخَفَضات

العَنبريَّة المَغمورة بالرَّوائح المُختَرِقة؟ كم مضى من الوقت وهي متسلِّقةٌ هذه التَّموُّجاتِ البنفسجيَّةَ لاستقبال الحصاد الثَّمين؟ لا البردُ مسؤولٌ عن عدم راحتها، إذ لا جدوى من ضَربِ الرِّيح زواياها المُخَبَّأةَ والمَحميَّةَ منها، ولا حتَّى النَّقصُ في الغذاء هو المسوؤلُ عن ضِيقِها، فَلَمَعانُ الرَّحيق المَليء بالسُّكَّر والحبوب الصَّغيرة العَنبريَّة قريبٌ منها. إنَّها الوَحدةُ، الوَحدة. بعيدًا عن اهتماماتِها المألوفة، يائسةٌ هي، وقابلةٌ للانجراح من دون مؤازرةٍ من رفيقاتِها، وحمايةٍ من حَرَسها الشَّخصيّ. كان المهمَّ في كلِّ ذلك، وعلى الرَّغم من كلِّ شيء، الوصولُ إلى هدفها قبل انقضاء النَّهار، أو قبل تَخَلِّي قواها عنها.

وتراءَت لها، داخلَ عَينَيها، الصُّورُ ذاتُها، من خلال مَرايا بعدَّة مظاهر: الوجوهُ المُضنِيةُ أمامَ النَّار، غروبُ الشَّمس فوقَ الأشجار، الأسماكُ بفَمها المَفتوح على مَجرى الجدول الضَّيِّق شيئًا فشيئًا، هروبُ الغزلان المَرعوبـــة من النَّـــار التي أحرقَتِ الأرضَ فجأةً. تملَّكَتِ

المَجاعةُ النَّاسَ، وخارَت قوى العصافير. تبخَّرَت المياهُ، وقرَّرَتِ الحشراتُ اصطحابَ جَماعتها الطَّانَّة باتِّجاه بقاعٍ أكثرَ حفاوةً. عليَّ أن أعودَ، قالت في نَفسها، بينما كانت تتسلَّقُ بإصرارٍ، ومن دون إضاعة أيِّ لحظة.

قامَت بجُهدٍ جديد، ثمَّ بآخرَ، وخرجَت أخيرًا من الأعماق المُتَوَرِّدة حيث كثافةُ العِطر التي وصلَت رأسَها، أسكَرَتها لِلَحظات. ليس في استطاعتها الاستسلامُ، الآن، وقد شحَّ القوتُ أكثرَ فأكثر؛ لا شكَّ في أنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ والأولادَ هم في انتظار أعجوبةٍ ما قبلَ المباشرة بالهجرة الجَماعيَّة المَحتومة. ثبَّتَت جسدَها بتوازنٍ مثلَ حركة ميزان، وهي متشبِّثةٌ بالحافَّة، مجازفةً بالسُّقوط من جَرَى العياء الذي منعَها من المتابعة. توقَّفَت عن الحراك، متجرِّعةً الطَّراوةَ الرَّطبةَ حتَّى استعادَت رمقَها. نظرَت إلى الفَنادة *(مجموع أغصان الشَّجرة)* المَشدودة، إلى سهام الشَّمس المُنغَرسة في الشَّجر، إلى السَّماء القاحلة، حلَّقَت وطارت باتِّجاه المكان حيث القبيلة.

فجأةً، تلألأَ أرخبيلٌ مُشَجَّرٌ داخلَ الحقول ذاتِ اللَّون الأصفر الشَّاحِب. عليها وَضعُ ما جمعَته في المكان المحدَّد له، مُجازِفَةً بحياتها إذا تطلَّبَ الأمرُ ذلك. عندما أدركَت المخيَّمَ، اتَّجهَت يميناً وجرَت نحو الغابة الصَّغيرة باحثةً بيأسٍ عن بقيَّةِ قُرص العسل. عندما رأتْه، سارعَت إلى داخل الخَلِيَّة لوَضع الرَّحيق الذي جَرَسَتْه من تلك السَّحْلَبيَّة.

لم يعرفْ أحدٌ حقيقةً كيف استمرَّ النَّاسُ في العَيش؛ لكن، بين أغاني الدَّرب القديمة، بقيَ نشيدٌ يُقدِّمُ الولاءَ لنحلةٍ صنعَت أوَّلَ قطرة عسل داخلَ قَفيرٍ عظيم.

تمرُّدُ الغابة

إستفاقَتِ الأشجارُ قبلَ مباشرةِ الشَّمس نَشرَ ذراعَيها على الأفُق. السَّببُ ليس غناءَ *الكوروشيرِه (نوع من العصافير من فئة الشَّحْرورِيَّات، تُشبهُ السُّمَنَة)*، ولا في سباق الغزلان، ومداعباتِ النَّدى ضلوعَ الأوراق، ولا حتَّى في شجاراتِ البَبْغاوات أو في تحرُّكات الصَّيَّادين في المَكْمَن: شيءٌ ما أكثرُ شؤمًا يُرَفرفُ فوق هدوء الغابة.

سمعَتِ الأشجارُ صوتَ المُحَرِّكات الرَّاعِدَة، فيما العيونُ راشِحَةٌ نَعَسًا. هذا نذيرٌ لأيَّامٍ صعبة. الضَّرباتُ الأولى التي أسالَتِ الحليبَ من القشور، أقلقَت شجرَ *الـــبِوْلو سَنْتو (شجرٌ يفرزُ خشبُه الاخضرُ الرَّماديُّ القاسي جدًّا الرَّائِحَ البَلْسَميّ)* وأغضبَت أشجارَ *الكورونِلُس (شجرٌ يُستخرَجُ منه صبِاغٌ أحمرُ قاتم)*. الرِّجالُ هنا من جديد.

سَرَت قشعريرةٌ بين أوراق الأشجار. وبدأ نحيبٌ خفيفٌ يَنبَجِسُ من الشَّكير، ملأ الجوَّ بأريجٍ حزين.

صرخَتِ العارِشاتُ الغاضِبات، وبكَتِ الجَنْباتُ، المُجَمَّلةُ في انتظار حفلات الزَّواج القادمة، الخسارةَ التي داهَمَت أزواجهنّ، في حين حافظتِ الأشجارُ المئويَّةُ على صمتِها. تركضُ الحيوانات، تقفزُ، تهربُ بإتِّجاه الأدغال. ها هي تقتربُ، وبسرعة، من هنا وهناك. تلتمسُ العصافيرُ المَذعورةُ الملاذَ في البعيد. *"علينا أن نتحمَّلهم، سنةً بعد سنة"*، تعترضُ بَغنونيَّةٌ *(نباتٌ مُعَتَرِشُ الفصيلة، جميلُ الزَّهر، من ذوات الفلقَتين)* صفراءُ. *"يقتلعون أصدقاءَنا"*، يشتكي *التِمْبو (شجرٌ نموذجيٌّ في البارَغْوي، خشبُه قاس يُستعملُ في صناعة زوارق الخفَّاف)* وهو يسكبُ ماءَه الخَثِر. *"إنَّهم يختطفون منَّا الظِّلَّ، يدمِّرون القُفْران ويحوِّلون الجلبَةَ السَّاكنةَ فينا صمتًا"*، يُعبِّرُ التَّاروما *(من فصيلة الأرثديَّات النَّباتيَّة من ذوات الفلقَتين وَحيدات التُّوَيْجيَّة)* بسُخط.

ويحـــدَّدُ الرِّجالُ شكلَ المخيَّم: أربعةُ ركائِس، جلدٌ

فوق دُقرانٍ مؤقَّت، القليلُ من القشِّ والنَّخيل لتأمين حمايةٍ لهم من ضجيج الغابة الحيويّ.

"وسطُ الغابة أكبرُ رَحِمٍ للكون. تموتُ، داخلَه، الحياةُ، وتولَدُ من جديد. وفيه، أيضًا، تَكمُن لُغةُ الطَّبيعةِ غيرُ المَفهومة"، تُفكِّرُ أرزةٌ بصوتٍ عالٍ.

حدثَت مؤامرةٌ في الغابة تلك اللَّيلة: بمُجرَّد تحديد خلاصَة العطورِ القابلةِ لإعطاء خشبٍ جيِّد، وبمُجرَّد الحُكمِ على الرَّاتِنْج العطريِّ بشِقٍّ واضِح، علمَ الجميعُ أنَّه في الغد، وبغَضِّ النَّظر عن أوانِ الإزهار أو المخبإِ المُتَّفَقِ عليه من قبل العصافير، ستبدأُ مرحلةُ القَطع. رازِحَةً تحت رحمة هذا الاستِخفاف، وتحت هذا الواجب اللاَّمحدود من اخضرارٍ متجدِّدٍ وصولاً إلى المَوْت، رضيَتِ الأشجارُ بالأمر: ماتَ الصَّبر، تمَّ القَبولُ برباطة جأش، إنتهى الحزنُ الذي يَلِدُه التَّشويهُ والتَّخلِّي. ما عادتِ الأشجارُ مهيَّأَةً للتَّهاون أمامَ استبعادٍ جديد، بل إنَّها، على العكس من ذلك، عــازمةٌ على مَنع شَفْرة المُكتسِح من إسقاطها. إتُّخذَ

القرارُ على نَحوٍ نهائيّ. *"ولكن إلى أين؟"*، تساءَلَت الفروعُ التي لا خبرةَ لديها. *"إلى حيث ما من أحد في استطاعته مهاجمتُنا"*، أجابَتها الأشجارُ المُسِنَّةُ والمُستَسلِمة.

بعد كلامٍ كثير، فكَّرَت الأشجارُ مَلِيًّا في تفاصيلِ الهروب الدَّقيقة. إنَّها لا تقصدُ نَقلَ الألم معها، هكذا، وبكلٍّ بساطة، بفعل تغيير المكان، أو بتأكيدِ رفضها الإزهارَ من أجل التَّنقُّل على نَحوٍ خَفِيّ. من غير المعقولِ إجبارُ العصافير على التَّوقُّف عن الغناء، أو إرغامُ السَّريغ على التَّخلِّي عن مخبئه. ما كان في مقدورها إبعادُ القوطيِّين المُنزَوين الباحثين عن مكانٍ أمينٍ من مَرمى النَّشَّال. إستحالَ عليهم الاختباء. ما من مكانٍ يَحميهم من اغتصاب الرِّجال لهم، هذا ما أكَّدَته الأشجارُ المُسِنَّةُ من قِمَمها الباسقَة والبعيدة. هي مثلُ دعائمَ خضراء، في استطاعتنا رؤيتُها أينما وُجدَت. لقد تلاشت على نَحوٍ حدَسيّ. أيُّ حلٍّ بقي لها؟ ما من حلّ. قبل بزوغ النَّهار، ستُقتلَعُ جذورُها من الأرض وترحلُ، مثل الحيوانات، إلى الأبد.

ليس سهلاً عليها تنظيمُ الرَّحيل: فأُسَرٌ، بكامل عددها، رفضتِ الابتعادَ عن أشجارٍ كانَتِ الملجأَ بالنِّسبة إليها. وتذرَّعت أشجارٌ أخرى بثِقَل حمولتها من الفواكه، وخشيَتِ الغالبيَّةُ منها وقوعَ الأعشاش من بين ذراعيها. أُتُّخذَ، في نهاية المَطاف، القرارُ: في المساء، عند ظهور القمر، ستهربُ كلُّ الغابة باتِّجاه الأعالي، حارِمَةً الإنسانَ من الأشجار. بسَطَتِ الأشجارُ، عند إعطاء الإشارة، أغصانَها كالأجنحة، وارتفعَت، عند إطلاق كلمة حرِّيَّة، صوبَ السَّماء، كجزيرةٍ هائلةٍ مَليئةٍ بالنُّسْغ والظِّلَّال. كم كانَت دهشتُها كبيرةً عند اكتشافها تيهَ العصافير، وهروبَ العظايات المفاجئ، وعُواءَ الثَّعالب الصَّهَبَة وصراخَ *الأوروتاوْ (طيرٌ ليليٌّ ريشُه داكِن، يُشبهُ البومة)* الكئيب. وتدحرجَتِ الحيواناتُ صوبَ الحُفَر التي تركتَها الأشجارُ وراءَها، لأنَّها خسرَتها عندَ ارتفاعها صوبَ السَّماء. وأخيرًا، وصلَتِ الأشجارُ المكانَ الآمِن. وراقبَت، من هنا، الأرضَ وهي مُعَلَّقةٌ مثل عينٍ فارغةٍ في جسم الكون.

تأرجحتِ الحيواناتُ في هبوطِها! تاهَ الرِّجالُ في الصَّحراء بعدَ أن حُكمَ عليهم العيشُ بلا ظلال. الآن، وقد توقَّفتِ الأشجارُ عن التَّوسُّلِ إلى الغيوم، احتفظتْ هذه الأخيرةُ بزخَّاتِ المطر، فيما تشقَّقَتِ الأرضُ بفِعل الجفاف، مثل الثَّمر من دون لُباب. لا طنَّانَ واحدًا، أو قَفيرًا، أو حيَّةً رافقتِ الأشجارَ. بقيَ الجميعُ عند الأسفل ذارِفًا الدَّمعَ على غيابها.

قرَّرَتِ الأشجارُ – عند رؤية هذا الكَمِّ الهائل من الحزن، وبفِعل النَّدم على النَّتائج التي أحدثَها فرارُها – النُّزولَ من جديد إلى الأرض. لكن، واحَسْرتاه! إنَّ تثبُّتَها بالسَّماء، وعجزَها عن القيام بأدنى حركة، جعلاها شاهِدَةً على زوال كلِّ الأجناس الحيَّة الموجودة على الأرض.

وحدثَ، ذاتَ يومٍ، أمرٌ غريب: عند تأمُّلِها خرابَ موضعِها القديم، انفتحَت جذوعُ الأشجار قليلاً، ومن الوسط، حيث مخبأُ اللُّبِّ العَطِر، سقطَ مطرٌ مَرصوصٌ بالحُبَيبات، وغطَّى، بتَوانٍ، الحقولَ المُشَوَّهَة.

بدأتِ الأشجارُ، لِشدَّة ما كان الوضعُ حزينًا وسطَ تلك الصَّحراء، بالبكاء، وما توقَّفَت حتَّى قامَتِ الشَّمسُ بنَبتِ الحياة من جديد.

ولادةُ اليَنْبوع

تنطلقُ الشَّمسُ السَّاطعةُ، بعُبورها المياهَ، باتِّجاهٍ معاكسٍ لجسدها المُخطَّط، وتلوِّنُ صُلْب النَّهر الهامِس بألوانٍ متقزِّحَة، وتتألَّق، إلى مسافةٍ بعيدة، الحفافي بالخُضرة. تُصرُّ سمكةُ *السُّوروبي (سمكةٌ ضخمةٌ تعيشُ في المياه العَذبة من دون حراشفَ، جلدُها رماديٌّ مع بُقَعٍ سوداء)* على الصُّعود ثانيةً مع التَّيَّار، مُتَجَنِّبَةً جُمَّةً سوداءَ، من بقايا القوارب، تحاولُ الانجِرارَ معها، من دون أيِّ مقاومة، حتَّى المَصَبّ. يقطعُ عياءُ غريبٍ نَفَسَها، وكأنَّ المياهَ غدَت أكثرَ ثقلاً، قلِقةً أو مريضةً من الحزن.

وبسرعة السَّهْم، تستميلُ أطباقُ حدَقاتِها الدَّاكنة تحرُّكَ الأسماكِ البَطيء، والتَّردُّداتِ التَّموُّجِيَّةَ، والصَّمتَ المُستَحوِذَ، بالتَّدرُّج، على النَّباتات.

داخلَ شقوقِ الصُّخور، حيثُ التَّنَبُّتُ رَخْص، والنُّقَرُ رمليَّة، تنضجُ عناقيدُ البَيْض المتورِّدةُ التي يُلَقِّحُها الذُّكورُ بحَيويَّة ماهرة. على بُعد خطوتَين، قلقةً من اكتساب الظَّلامِ المفاجئ التَّلطُّفَ، تقيمُ أنثًى في أمكنةٍ مخصَّصة، بانتظار ظهور اليَرَقانات.

يُضني القلقُ العَيِّنةَ الرَّائعةَ من الأسماك التي تتقدَّمُ، وتتوقَّفُ، ثمَّ تتابعُ طريقَها في تموُّج. تقفزُ، مدرِكَةً الصَّوتَ الأجشَّ الآتيَ من تحت الماء، وصولاً إلى السَّماء المُكفَهِرَّة بالغيوم الرَّماديَّة، ثمَّ تسقطُ من جديد، وفي عنفٍ، إلى وسط الزَّوبعة وتضيعُ في تدفُّق الزَّبَد.

يحجبُ سِرْبٌ من الأسماك النُّورَ عن الماء. عند رؤيةِ بطون الدورادو *(سمكةٌ ضخمة، ذهبيَّةُ اللَّون، تعيشُ في مياه الأنهار)* مُنتَفخةً، يتسرَّبُ الخوفُ إلى قلب *السُّوروبي* مثلَ انغراز قضيب حديدٍ في جسدها. من أين يهبطون مع هذه الوُجْهَة المَليئةِ بالموت؟ يفتحُ قاربٌ مَنْدِيّ *(نوعٌ من القوارب)* فمَــه محاولاً التَّخلُّصَ من السَّائِــل الفاتِــر الذي

يحاصرُه. توجَدُ عدَّةُ قواربَ مَربوطةٍ بمرساةٍ في مَجرى النَّهر، ثابتةِ المؤخِّرة، وجاحظةِ العَينَين. في تقدُّمه المتواصل، يحسُّ *السُّوروبي* بنَقصٍ متزايدٍ في برودة المياه وفي خفَّة صوتها الرنَّان.

ويستريحُ *السُّوروبي*، داخلَ طبقةٍ من المياه الرَّاكدة، على زعانفه الصَّدريَّة من أجل استِجماع ما تبقَّى له من عافية. تغدو رحلتُه من دون نهايةٍ لفَرْط بُطئِه، ويضيقُ مَجرى النَّهر حتَّى الاختفاء لبعضٍ من الوقت. تتسرَّبُ طاقةُ *السُّوروبي* من خَياشيمه السَّاكنة. يحضنُ الخوفُ، داخلَ دماغه، الصُّورَ الكئيبةَ والرَّوائحَ الزَّنِخَة.

عليه شرحُ السِّرِّ الخَفِيِّ قبل أن يسدلَ اللَّيلُ ستارَه على آخر نورٍ للغَسَق. يضيقُ نَفَسُه شيئًا فشيئًا، ويتطلَّبُ تنقُّلُه مروءةً. لِمَ المياهُ ثقيلةٌ كالصُّخورِ عند الجوانب؟ لِمَ لا تغنِّي الأمواجُ؟ لِمَ لا تأتي العصافيرُ فتشربَ عندما يُرهقُها العطشُ؟

تنتفخُ حوافي النَّهــرِ وكأنَّ الأرضَ حُبلـــى، بينما

يصغُرُ الجَدولُ من دون سببٍ ظاهِر. ومتتبِّعًا خطَّ المياه المتبقِّي، ينتهي *السُّوروبي* بالوصول إلى هَضَبةٍ مُتلَفَة. ترتجفُ كلُّ عذبةٍ *(زائدةٌ خطيَّةٌ في فكِّ السَّمكة)* فيه، وتتأجَّجُ خَياشيمَه سُخطًا. يلحقُ، مَذهولاً لرؤية الغابة مدمَّرةً، البصماتِ اليابسةَ مُحدِثًا بذَيله لطماتٍ وَهِنةً مُشيرةً إلى تمرُّده. أُضرِمَتِ النَّارُ في الأشجار المحافَظِ عليها بعنايةٍ بالغةٍ على ندى الفجر. وكُتِمَت مُناداةُ المطر على الرَّغم من انتظار ولادة اليَنبوع.

بدأتِ المياهُ بالانتِقاص بعد فقدان الغابةِ نضارتَها. أطلقَ *السُّوروبي* أنينًا من شدَّة ألمه. غذَّى رقادَه من ليلٍ بلا قمر. تألَّقَ جسمُه من جديدٍ بألوان الشَّفق، واتَّسعت عيناه الغارقتان في البكاء والألوان المُخْضَرَّة، حتَّى أصبحتا يَنبوعًا ترتوي منه، منذ ذلك الحين، أمُّ الأنهار التي هي في حالِ الخطر.

زُنَّارُ الحُباحِب*

كان هو بعَينه: هبطَ، وكالعادة، حتَّى وصلَ النَّبعَ. مأخوذةً بنظرته المُحبَّبَة، نادَتْه بفَرْقَعَة لسان. كان مَشيقَ القامة، هادئًا، عندما عكَّرَته رائحةُ مُتَطَفِّل؛ وغدا مُستَعِدًّا للهرب لدى سماعه أدنى قَرْقَعَةٍ في الأدغال. نظرَ إليها بأعصابٍ هادئة طغَت على حَيائه.

فجأةً، أصاخَ السَّمْعَ، جهُمَ وَجهُه، ثمَّ هربَ نحو السَّهل المُنتَشِر تحت قدمَيه. بالكاد استطاعَت الخروجَ من المياه للَّحاق به، راكضةً، على أثر هروبه المُضطَرِب.

في بحثه عن إشارةٍ ما، أرسلَت عينا رأسه المستطيل، وبسرعةٍ مُذهلة، نظرةً مُتلألِئَةً بالخوف عبـــر

---

* حشرةٌ تطيرُ ليلاً وفي ذَنَبها شُعاعٌ كالسِّراج.

جانبَي الطَّريق. كأنَّها مجموعةُ حُباحِب، فكَّر في نفسه. بعد قليل، مُتظاهِرًا بنسيان هذا التَّهديد، توقَّفَ الأيِّلُ لعَضْعَضَة الأعشاب، غيرَ مُبالٍ بالخطر بعد أن غَطَّى اللَّيلُ الغَسَق.

أدركَت الفتاةُ الأمر: كانت، تلك، بدايةَ الهروب! غارقةً في ظلال الأدغال، تقدَّمت في هدوء، مُلتَفِتَةً إلى الوراء في كلِّ لحظة. أحدّ ما يكمُنُ للحيوان: هذا ما أكَّدَته لها نبضاتُ قلبها المُتسارِعَة بشدَّة.

ما إنْ رأَتْه، البندقيَّةُ على الكَتِف، الكَبِّيَّةُ *(قَبَعَةٌ عسكريَّةٌ فرنسيَّةُ الأصل)* مغروزةٌ إلى الحواجب، حتَّى اضطَرَبَ وجهُها من التَّأثُّر، والتَفَّ الخوفُ، كالحيَّة، داخلَ حلقها. فتَّشَت من حولها، حدَّدَتِ المسافات. كانَ الحيوانُ الصَّغيرُ، بالقرب من هنا، يَرعى: النَّظراتُ حَنونة، والأسنانُ مليئةٌ بعصارة الأعشاب. إستولتِ الفتاةُ، في سرعةٍ، على اثنين من الحُباحِب كانا يُرَفرفان من حولها، ولبسَتهما.

أنا هنا، هذا ما تظاهرَ بقوله وَميضُ الحُباحِب فوقَ جلدها النّحاسيّ. وطارَتِ الفتاةُ بمحاذاة الغابة، ودَلَفَت إلى الدَّرب الضَيِّقة، فتَّشَت عن المتاهات المُرتادَة من قبل الحيوانات فقط، مُتقدِّمةً ببطءٍ حتَّى لا تغرُبَ الشَّرارتان عن بال الرَّجل.

إجتازت أشواكَ الغابات، ولاحظت، بخَيبةِ أمل، توقُّفَ الصَيَّاد عن ملاحقتها. وفاجأته، بالعودة إلى الوراء، وهو يستنشقُ بلذَّةٍ الرَّائحةَ التي تركَها الأيِّلُ المذعورُ تتطايرُ في الهواء.

كان عليها إرباكُ الصَيَّاد، وربَّما قَهرُه. تراءَت له، هي السَّمراءُ الهارِبَة. إلتقطَت حُباحِبًا آخرَ ووضعَته إلى جانب الآخرين.

نجحت في إقلاقِ راحته، في منعِه من التَّنفُّس. عندما ابتعدَت، أضافَت بتَمَهُّلٍ، مجموعةً من الحُباحِب من حول قامَتها، مُشَكِّلَةً بذلك شريطًا لامِعًا.

بعد أن ضلَّلَه تخيُّلُه، حادَ الرَّجلُ عن طريدته. مَن هي هذه الصَّبِيَّة؟ إلى أين قادَها هذا الزُّنَّارُ من النُّور؟ بدأ بملاحقتها مُتظاهِرًا بعَدم حصول شيء، وإنَّما، من دون حثِّ خُطاه، وكأنَّها هي التي تنتظرُه كلَّ مرَّةٍ يتوهُ فيها وسطَ الأشجار.

أفاقَ القمرُ عند بدء حلول اللَّيل. خلدَتِ العصافيرُ إلى النَّوم داخلَ أعشاشها.

لكنَّ الصَّبِيَّةَ الغامضةَ تقدَّمَت، وما استطاعَتِ الجذوعُ ولا السَّواقي ثَنيَها عن إيقاف مسيرتها. برزَتِ الصُّخورُ كأشباحٍ مَصنوعةٍ من ظُلُمات. لَحِقَها الصَّيَّادُ، مَفتونًا.

حين أزاحَ الفجرُ أشرِعَةَ اللَّيل، كانت هذه الأشرِعَةُ قد خرجَت للتَّوِّ من نضارة الغابة، ومن بساتين النَّخل، ومن السَّهل الذي لا يَنتهي؛ وصعدَت إلى أعالي الجبال، وتنشَّقَت صمتَها الأبيض. وبعد انفصالِها عن الأرض، بلغتِ النُّجومَ، لا بَل عبرَت اتِّساعَ كَوكَبتها،

وشاهدَت نورَ الكواكب، إلى حين رأت، أمام عَينَيها، الفتاةَ–الصَّبِيَّةَ مُرتَمِيَةً في الفراغ، فيما زُنَّارُ الحُباحِب في انحلالٍ تدريجيّ.

ألمحتَوَيات

ألسُّمَّنَةُ والمَخبَأُ الشَّجريّ..... ٩
كيف أنقذَ طِفلٌ أرزةً..... ١٥
إعترافاتُ حُبوب..... ١٩
يومَ سقطَتِ النُّجوم..... ٢٥
قطرةُ عَسَل..... ٣١
تمرُّدُ الغابة..... ٣٥
ولادةُ اليَنْبوع..... ٤٣
زُنَّارُ الحُباحِب..... ٤٧
ألمحتَوَيات..... ٥٣

الثقافة بالمَجَّان

سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par

Free of charge literary series established and directed since 1991 by

Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por

Naji Naaman

MIN QALBIL GHABATIL MULTAHIB

DESDE EL ENCENDIDO CORAZÓN DEL MONTE

DU CŒUR EMBRASÉ DE LA FORÊT

Version française de

MAÏTE SOUM-JACOB

Traduite en arabe par

MARCELLE AL-ACHKAR

Révisée par

NAJI NAAMAN

Février 2008

© ***Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados*** - ألحقوقُ مَحفوظة

Maison Naaman pour la Culture & www.najinaaman.org